خواطر ابن بلد رجع من المنفى

بغداد تخرج من المذبحة عاصمة تغرق في البؤس وشعب متعب

شاكر الأنباري

يصعد الباص على جسر الشهداء، متجهاً نحو الرصافة ثم يبلغ قمة الجسر. قبل ان يظهر تمثال الرصافي، يفاجأ المرء بمنظر غريب، بنايات ونخيل وجسور، طيور محلقة وآفاق، كلها اجمع ملفعة بستار من الدخان. انها بغداد، المدينة الأكثر تلوثاً في العالم دون شك. الى اليمين وزارة الاعلام المحترقة. الى اليسار مدينة الطب التي لم يزل اسم صدام مرقوما على جدارها العالي. وزارة الدفاع مبعوجة بصاروخ. ودخان في الجهات. مدينة هجرتها النوارس، لكن يمامها لا يزل يسبح فوق مياه دجلة. مجال الرؤية ينعدم بعد عشرات الامتار. تتحول الكتل الى ضباب دخاني تتخذ فيه الاشكال، والهيئات البشرية صفة رجراجة، شبحية، ذات ملامح غير أكيدة. للوهلة الأولى لا يبقى سوى الدهشة.

هل من المعقول ان ترقد مدينة عريقة مثل بغداد وسط هذا الدخان الكثيف؟

هل هي آثار الحروب الماضية؟

يندمج اللون النحاسي للدخان مع لون الابنية الكالح. لون ملابس البشر البالية لم تتغير ربما منذ عقد الثمانينيات. بغداد مدينة ذكورية بامتياز. كأنها لم تتجدد منذ دخول القوات العراقية الى الاراضي الايرانية. بالعكس، راحت تتآكل قليلا قليلا، حتى تحولت اليوم الى خرائب في طريقها الى الزوال.

انها مدينة مصابة بالجذام.

ما ان يعيش المرء اياما في بغداد، يتآلف معها، يدخل في ثناياها، يستمع الى حكاياتها وبوحها، حتى يفهم سبب كآبتها، ومنظرها الدخاني الذي لا يسر. ثمة ملايين من السيارات العتيقة، ربما يعود بعضها الى العقد السابع من القرن الماضي، تسير في الشوارع، وقودها مغشوش، محركاتها بحاجة الى مضبرة. السيارات مهترئة، وليس هناك انظمة مرور تحاسب الناس على اهتراء آلياتهم. كل تلك السيارات العتيقة تطلق دخانها، نصف المحترق، الى رئة المواطن البسيط، المخرب، المهزئ الشباب، الذي لم يصدق بعد انه نجا من ثلاثة حروب ثم ظل سالماً. عبر عقد من الحصار، ولما يزل يستطيع التمتع بشرب استكانات الشاي في مقاهي الرشيد العتيدة. يأكل سمك دجلة ويسكر بعرق العصرية للقطر من تمور البصرة. عشرات من الآليات الأمريكية تجوب الشوارع ليل نهار. بعضها دبابات ثقيلة لحجم تطلق بقايا عوادمها في سماء بغداد الشاحبة. التلوث في كل مكان. لا احد يهتم لذلك، او يعمل شيئاً. باستطاعة اي شخص ان يحرق اكوام الزبالة او النفايات في اي شارع يرغب، دون ان يردعه احد. هناك محارق تحت جسر الجمهورية والشهداء والأحرار. هناك محارق للورق والكارتون، في ما كان يسمى ذات يوم بكورنيشات الاعظمية وابي نؤاس والكرادة.

يرتفع دخان اسود في السماء، ويظن البعض انها آلية اميركية تحترق، او مواجهة مع متظاهرين، فيكتشف ان الأمر لا يعدو ان يكون حرق مزبلة مرت عليها سنون. كل دخان يتصاعد الى السماء يجلب الخوف الى القلوب. مدينة صارت ترتعش من الحروب، وتحن الى سلام دائم. فوضى! اجل، لكن دون حروب. وفي الحقيقة لم تكن الفوضى في بغداد وليدة اليوم. عمرها عشرات السنين، وكأن نظام صدام السابق لم يكن يهتم بشيء على الاطلاق سوى تقوية الحرس الجمهوري والأمن الخاص والخابرات. اما الابنية، اما الشوارع، اما الحارات الشعبية بيوتها الطابوقية، اما الحدائق والكورنيشات، فراحت تعتق وتخرب سنة بعد اخرى، الى ان تحولت هياكل عظمية من خشب وملاط ومكعبات كونكريتية. في الحقيقة لم يواجه الانسان مصير افضل من الابنية. في مقهى الشابندر، وهي مجاورة لشارع المتنبي الذي تباع فيه الكتب القديمة والصحف والمجلات، ويجلس فيها الأدباء عادة، لم تكن الحال مغايرة عن مصير بغداد المأساوي. اول ما يدخل المرء تواجهه النخوت الخشبية السوداء من الدخان والغبار وملامسة الأيدي، ثم الطاولات المتوزعة بلا انتظام على الجالسين، وعبق العسل والأركيلة والوجوه الكالحة. عتمة بيت النار تعود كما يخيل للرائي الى عهود بني العباس. الملابس كلها تعود الى فترة السبعينيات. بلا الوان زاهية. نادرا ما يلبس العراقيون قمصانا حمرا او صفرا او خضرا الكتب التي يحملها الجالسون قديمة، يختص عدد كبير منها بعلم النفس والأمراض الروحية والعقد البشرية. اللغط يدور عن شيء واحد فقط، ايجاد فرص عمل سواء في جريدة جديدة او محطة تلفزيون او اذاعة. الجميع يشتغل في اعلام العراق الجديد بمن فيهم

على كتاب صادر في الألفين يعد معجزة، وكأن العراق كان مغلقاً تماماً عن العالم العربي، او الاجنبي.

في مقهى الشابندر، كما في الشارع، ثمة شيء جديد في وجوه الناس. الأمان؟ القبول بما حصل؟ شيوع الخيارات في كل مناحي الحياة؟ زيادة الرواتب؟ زوال التماثيل والصور؟ الأكيد من ذلك هو انه لم يعد هناك خوف في التعابير، ولا احد ينتبه كثير ألجاره او الماشي قربه. لخوف القديم من اجهزة الأمن، والتنصتين، والخابرات، اختفى من العيون والوجوه. اصبح كل فرد غارقاً بعالمه الخاص. يهمهم. يرسم طريق جديد. هناك اشخاص كثيرون غرقوا بعوالمهم الخاصة لدرجة ان المرء يراهم نائمين على الأرصفة، وفي الخرائب، وتحت الجسور، او يهيمون متسخي الثياب في الأزقة والحارات، يتكلمون مع انفسهم، يناجون كائنات غامضة من الماضي، او ينظرون الى الوجود نظرة غائمة، لقد تغير كثير من الاشياء في بغداد. كان التغيير في الحقيقية زلزالا ماحقاً. بين شارع وآخر، يصطف الناس على باعة الصحف يقرؤون العناوين.

عشرات من الصحف، بعضها بأربع صفحات فقط، تنشر الأخبار الكثيرة على صفحاتها الأولى بخط عريض وصور مغرية. الدعوة. المؤتمر. الساعة. الصباح. الندى. النهضة. حيزبوز. الرأي. بغداد. طريق الشعب. الاتحاد. التآخي. وهلم جرا الصحافة السريعة هي السائدة، اذ ليس هناك مجلات حتى اللحظة.

ان اكثر ما يغري القارئ البغدادي اليوم هو اسرار النظام السابق، وأسرار استسلام بغداد السريع.

ام قصر وحدها، وهي ميناء بصري صغير على الخليج، قاومت اكثر من اسبوع، فكيف تستسلم بغداد دون مقاومة؟ وراء الحدث مؤامرة. نادرا ما يقتنع الناس العاديون بمقولة ان لا احد كان يرغب بالدفاع عن نظام صدام حسين وولديه. الذين زاروا بغداد قبل ان تجتاحها القوات الامريكية قالوا انها كانت مزاراً حقيقياً. كان في كل زقاق وشارع وحارة افراد مجتشدون بحوزتهم الرشاشات والقاذفات والقنابل، عددهم لا يقل عن المليون، متحصنين وراء سواتر ترابية وفوق بيوت وتحت جسور، فكيف ينسحب ذلك العدد دون مقاومة، شخصية في الأقل؟ يمكن القول ان الناس لم تشأ الدفاع عن بؤسها. لم تشأ الدفاع عن مذلتها وتعاستها وقمعها وعزلتها وتخلفها. لم يكن في بغداد اي امكانية لنصب جهاز ستالايت. والفرد العراقي ضرب حوله طوق اعلامي لاكثر من عشرين سنة. الأخبار التي تصل اليه تلفزيونيا تمر عبر فلتر عدي صدام ووزارة الاعلام ذات اللون الواحد. الحقيقة ان الحياة في العاصمة بائسة حقاً برغم ان الحرية موجودة.

ما ان ينعطف الماشي خارج الشوارع الرئيسة، ويتجه نحو الأزقة والحارات، حتى يكتشف ذلك البؤس.

تلال القمامة في كل مكان، الذباب يطير بالملايين، انه في الصحف والوزارات والمطاعم وفوق المياه وفي فضاءات الشوارع وعلى خدود النساء. كيف لمدينة مثل بغداد تحمل هذا الجيش من الذباب؟ يطير على السمك، على اللحوم المعروضة كيفما اتفق فوق سلال التمر، وبين كراسي المطاعم.

المجاري تصب في الأزقة، واصحاب المحلات يرمون فضلاتهم اينما كان. الزوايا المهملة تحولت الى مراحيض عمومية. لا فرق في ذلك بين منطقة شعبية مثل الشواكة، في الكرخ، او منطقة فاخرة، سابقاً، هي السعدون، في الرصافة رائحة البراز تشيع في كل مكان، وبغداد تخرج قيحها وعفونتها التي تراكمت منذ ثلاثين سنة. لم تعد مدينة للثقافة ولا للتجارة ولا للمتعة. اصبحت مدينة اللصوص والقتلة والجانين ومتصيدي الفرص وعديمي الضمير. الساسة حواة يبارعون والوطن يترنح من الفقر والفاقة والتخلف. فبامكان الشخص ان يصبح قاطع طريق او لصا او قاتلا بابسط الطرق. ليس هناك قانون يردعه او قوة تقف في وجهه. الضمير هو الرادع الذي يفصل بين اغراء الجريمة وقسوة النبل.

شيء وحيد يشيع الراحة في القلوب يحب بغداد. كثرة النخيل، وهي ظاهرة جديدة عليها وكان سكانها تعبوا من ترهل الاسمنت والخشب والاسفلت والحديد الحرق، فاتجهوا الى صديقتهم القديمة التي تحدرت لهم من اجدادهم السومريين، النخلة.

راحوا يزرعون النخيل في الحواش والشوارع والفسحات والبيوت والحدائق، طلعا في الضي السميك والتمر اللذيذ وديمومة النخلة التي تقاوم كل الظروف، بما فيها ظروف الاحتلال. وللاحتلال في بغداد قصص واساطير. في قلب الشورجة، وهي منطقة شعبية لبيع البضاعة بالجملة وتنحصر بين شارع الرشيد وشارع الجمهورية، يصبح الزحام على اشده في الظهيرة، الدبابة الامريكية التي تورطت في ذلك الزحام كان منظرها غريبا تلك الساعة. الجندي الاسود المنتصب في قمرتها ويده جاهزة لاطلاق النار، برغم انه ينظر بخوف الى وضعه الغريب بين الوف العراقيين، لم يتعرض الى اي هجوم. ببساطة كان من الممكن قذفه برمانة يدوية او رشه بعدد من الرصاصات. ويمكن للمهاجم ان يضيع بين الجموع دون اثر. كانت الناس تنظر بلا مبالاة الى الدبابة. هذا الشهد ليس نموذجياً في بغداد او المدن العراقية الاخرى على اية حال. الانقضاض يجري احيانا بسرعة غير متوقعة، وفي اماكن غير متوقعة ايضاً من يقوم بذلك وماذا وكيف، لا احد يجزم او يعرف بدقة. الجميع يمتلك الحجة الصائبة. الوجود الامريكي في العراق مربك. لولا هم لما سقط نظام دموي لم يشهد له التاريخ مثيلاً لكنهم يسببون ازعاجات كثيرة للمواطن. فجأة يغلقون طريق المطار، او الطريق القادم من ابي غريب الى العلاوي، او طريق الصالحية النار في مقر لحاكم المدني، فيضطر السائقون الى البحث عن شوارع اخرى للوصول الى مقاصدهم. الاكتظاظ احياناً لا يحتمل. تحت شمس الصيف ما زالت ترش الوجوه بنير انها اللاهبة.

بعض المواطنين يقولون ان الامريكان حين يتعرضون الى هجوم مباغت يبدأون باطلاق النار العشوائي فيقتل من يقتل ويجرح من يجرح، دون سبب، سوى انهم قريبون من موقع الحادث. اصبح العراقيون يتفادون الاقتراب من الدوريات الاميركية، اما ان يسبقوها او يتأخروا عنها، لأن اي حادث يقود الى الموت. الأمريكان في كل مكان، حتى في اروقة وزارة الثقافة، فثمة منسقون من العسكر في اغلب الدوائر التي فتحت ابوابها حديثاً. ضباط في الثقافة والمالية والنفط والعدل والداخلية. جنود في قصور الرئاسة ومقرات الشرطة والحدائق العامة وشواطئ النهر. في ذات الوقت ليس سوى الاميركيين من يزود الموظفين والعاطلين عن العمل والمتقاعدين والشرطة الجديدة والوزراء بالدولارات، عصب الحياة في العراق الجديد، العملة السائدة في بغداد اصبحت الدولار، ثماني رزم من فئة المئتين والخمسين دينارا في كل رزمة مئة ورقة، تساوي ورقة دولار واحدة من فئة المئة. اصبح كل شيء يقيم بالدولار، ابتداء من مكافآت الكتاب في الصحف العراقية الجديدة، وانتهاء باسعار العقارات التي تضاعفت اسعارها بعد قوانين التملك الجديدة. صار كل عراقي يمكنه التملك في بغداد. الغي قرار البعث السابق الذي حرم الجميع من التملك في بغداد عدا اعوانه وبانيته الأمنيين. صارت بغداد ملكاً للجميع، الكردي من السليمانية والشيعي من البصرة والسني من الموصل واليزيدي من قرى سنجار.

ذلك الشعار يرفعه الجميع ايضا، في الظاهر على الاقل.

كانت بغداد وحتى فترة السبعينيات عاصمة متعددة الوجوه. قبل هيمنة افكار البعث وسيطرة عائلة العوجة الواحدة. وجه للثقافة. وجه للتجارة. وجه للمتعة في ازقة الحيدرخانة والميدان وابو نؤاس ومحلة الذهب. وجه للسلطة في القصور الرئاسية. وجه للمناطق الراقية كالمنصور والكرادة والاعظمية. وجه للبؤس كما يراه المرء في الشواكة والشعلة ومدينة الثورة وعلاوي الحلة.

اليوم لم يعد لبغداد سوى وجه فقط. انه البؤس الذي يعرش في كل مكان. تركه صدام حسين وراءه ويتراءى ضبابياً في مرآة الاحتلال.

لقطتان

من هو المريض؟

من العلامات (البارزة) و(الناصعة) لأجهزة الدولة في عهد النظام السابق.. الرشوة والمحسوبية والابتزاز.. وضعف الوازع الأخلاقي وخيانة شرف المهنة.. والقائمة تطول.

وما زالت الصور طازجة في أذهان الكثير من المواطنين.. ولعل أغربها وأشدها مأساوية تلك التي كانت تحدث في أروقة المستشفيات الحكومية ورداهتها فأدوية الأمراض العصبية والنفسية مثلاً تجد طريقها بسهولة إلى أسواق المدمنين من مخازن مستشفيات كثيرة وبرعاية عصبة من (الكوادر) الطبية.

لن نتوقع أن تختفي الحالات السلبية بين ليلة وضحاها من مستشفياتنا بمجرد سقوط النظام. فكثير من الشكاوى تسرد الحالات السابقة عينها. أحد المرضى روى باستغراب أنه راجع إحدى المستشفيات لمعالجة ورم في صدره، فأحيل إلى شعبة الأشعة والسونار، وبسبب كثافة المراجعين لجأ إلى مختبر عيادة شعبية، وأخذت له الأشعة. وحين جلب النتيجة للطبيب المعالج (بشره) هذا الطبيب بأن الورم حميد، كما تقول نتيجة الأشعة، لكن الطبيب فاجأه بالقول: لا تتصور أن كل ما تقوله المختبرات صحيح؟ ألا تثق بي؟ وحين أجابه المريض بنعم، قال له الطبيب: مر علي في عيادتي كي أكشف على حالتك بشكل جيد. والنتيجة معروفة.. ابتزاز مريض مسكين.

ولا نعرف من هذا السلوك: من هو المريض حقاً!

جسور عائمة

يسعى رجال الشرطة بشكل عام لحفظ الأمن وسلامة المواطنين، ويسعى رجال شرطة المرور للحفاظ على إنسيابية السير، ومنع الاختناقات المرورية وتيسير عملية المجيء والرواح، وما يقوم به هؤلاء الرجال في التقاطعات المهمة هو جهد مضاعف، نتيجة كثرة السيارات وضيق الطرق وقلة الجسور.

وبما أن الحياة دبت من جديد في مفاصلنا الحيوية، وعادت المدارس والجامعات والمعاهد إلى احتضان طلابها، فإن الأمر يزداد ضغطه يوماً بعد آخر على المواطنين أولاً وعلى رجال المرور ثانياً، وهو بحاجة ماسة إلى معالجة سريعة لكي لا يستفحل ويكون أمر أميؤوساً منه.

فالجسور التي بنيت على قناة الجيش ما عادت تفي بالغرض المطلوب ومن غير الممكن أن تحل أزمة تقاطر السيارات في الصباح قبل بدء الدوام الرسمي وبعد الظهر بعد انتهاء الدوام الرسمي. فالسيارات القادمة من مدينة الشعب والحسينية ومدينة الصدر والطالبية والبنوك تعد بعشرات الآلاف وهي تروم العبور إلى الجانب الآخر، ومساحات الجسور محدودة، ولابد أن يحصل الاختناق المروري، برغم كل الجهود التي يبذلها رجال شرطة المرور. والحل باعتقادنا فتح جسور مؤقتة على امتداد شارع القناة للخط السريع، ولتكن على شاكلة الجسور العسكرية العائمة التي تنصب في الحروب لاجتياز الموانع المائية، لحين التفكير بإقامة جسور دائمة. هذا مجرد مقترح ليس بالضرورة الأخذ به، ولكن من الضروري جداً، التفكير في الأسباب التي دعت إليه!

أحاديث مندائية

في العمارة

محمد الحمراني

يتفرع نهر دجلة عند دخوله مدينة العمارة الى ثلاثة أنهار يمر احدها بجوار بيت يقع على جهة اليمين، يطلق عليه ابناء الطائفة (بيت مندا) او بيت العبادة. في يوم الاحد يجتمع اغلب ابناء الطائفة في هذا المكان، ليرتدوا ثيابهم القطنية البيض التي تعبر عن ارتداء الانسان للنقاء ويصلون باتجاه بيت المقدس، يتقدم المصلين احد الشيوخ، وينزل معهم في النهر بعد ذلك ليتعمدوا. التعميد هو تنظيف الاجساد من المدنسات والشخص المسؤول في مدينة العمارة عند التعميد هو الشيخ غازي خلف وفي حالة غيابه ينوب عنه الشيخ بشير حميد.

تشن مندى العمارة عام (1977) م ويقوم على حراسته، احد ابناء الطائفة بعد ان سكن هو وعائلته في منزل صغير داخل الندى، تحتوي البداية على اربع غرف وقاعة ذات أرائك خشبية ولوحة كتب عليها اسماء (12) شخصا من الذين اشرفوا على ادارة شؤون الطائفة.

في غرفة ادارة الندى التقيت نزار شنيشل رئيس مجلس طائفة الصابئة في العمارة، الذي تحدث لي عن الضغوطات التي كانوا يتعرضون لها من قبل رجال الامن الصدامي، قال كانوا ياخذون الكثير من الصوغات الذهبية مجانا واضاف منذ الايام الأولى لحكم البعث لم يتصل احد بنا ولم يزر الندى اي مسؤول، اعتمدنا على التمويل الذاتي في تسيير امورنا وعوملنا خلال حكم صدام وكأننا لسنا بعراقيين وتحدث الاستاذ فرحان فندي / مسؤول اللجنة الثقافية في الندى عن الانغلاق الذي تعاني منه طائفة الصابئة، بسبب المنع الذي فرضته الحكومة على اصدار صحيفة تعنى بشؤون الطائفة وعدم طرح مشكلاتهم في صحف النظام الرسمية وكشف عن ضغوطات طالت شباب الطائفة واضطرتهم الى الهجرة من البلد وسألته عن عدد الصابئة في العالم قال، يناهز عددهم المئتين الف نسمة منهم ما يقارب (2500) يعيشون في محافظة ميسان واضاف، ان الصابئة في العراق يتركزون في محافظات ميسان والبصرة وذي قار والبعض الآخر يستقر في بغداد ومن هناك تدار شؤون الطائفة وتحدث عن تاريخ صابئة ميسان وجذورهم التي تمتد الى بداية تكوين الحضارة الرافدينية ولم ينس فندي معاتبة الاستاذ المؤرخ عبد الرزاق الحسني حول كتابه عن الصابئة الذي ذكر فيه بأن الصابئة يعبدون النجوم واستغرب من هذا الزعم واكد ان ديانتهم موحدة ومن اهل الكتاب وذكرهم الله في القرآن الكريم. ودعت شنيشل وفندي وتوجهت لألتقي ببعض افراد الطائفة لعلي اتعرف على المشاكل التي كانوا يعانون منها في زمن الدكتاتور.

بحيرات لتعميد الفتيات

يعمل اغلب الصابئة في مهن ووظائف مختلفة ولكنهم يتميزون بصياغة الذهب والاعمال الحرفية وصناعة الزوارق في دائرة صحة ميسان التقيت موظفة الكومبيوتر لازهار صباح وطلبت منها ان تتكلم لي عن بعض مشكلات الفتيات الصابئيات في الرحلة الماضية فقالت، لم تستجب الحكومة الماضية لطلبنا في اقامة بحيرات لتعميد الفتيات، وخاصة العرائس اللواتي يسبب نزولهن في النهر وامام الملأ احراجا كبيرا لهن ولكن لم يستجب احد لهذا المقترح! ولم يكن من السهل تنفيذه من قبلنا لأنه مكلف وتحدثت ايضاً عن الضغوطات التي تعرض لها الشباب مما اضطرهم الى الهجرة وهذا ما تسبب في عدم زواج الكثير من الفتيات.

انها مشاكل كبيرة ولكن ليس بالامكان حلها، هكذا انهت ازهار صباح كلامها وانا اودعها قلت في سري ان الزمن كفيل بتغيير الامور، فالعوائل الصابئية كانت تسمح للنساء السنات فقط ان يعملن في مهن حرفية شاقة كصناعة الحاريث والمناجل واليوم يعملن على احدث الاجهزة العصرية.

نبذة تاريخية

تكتم رجال الدين المندائيين وعزوفهم عن الخوض في الأمور الدينية او مناقشتها بحضور الآخرين بما في ذلك اتباع العقيدة نفسها يعود لاعتقادهم بأنها امور جليلة ولا يجوز الخوض فيها امام من لا يفقهها وهم بذلك يشتركون مع الكثير من المذاهب الباطنية ومنها المتصوفة إذ يقول المتصوف السلم الشيخ محيي الدين بن عربي في كتاب الفناء والمشاهدة (وهذا الفن من الكشف والعلم يجب ستره عن الكثير لما فيه من العلو) وورد ذكر الصابئة في القرآن الكريم الى جانب اليهود والنصارى، مما يفيد انهم من اهل الكتاب، ويسمى كتابهم المقدس (كنزا ربا)، يحرص الصابئة على تطهير انفسهم واجسادهم من الشهوات والارتقاء بها الى عالم الروحانيات، ولهم طقوس خاصة بهم، فهم يتطهرون اذا لمسوا جسدا ويحرمون الختان وكذلك يحرمون الطلاق ويمنعون تعدد الزوجات ويؤدون صلواتهم يوميا، خدموا الحضارة العربية الاسلامية وكان منهم المترجمون والرياضيون والوزراء والشهر علمائهم، ثابت بن قرة وابو اسحاق بن هلال.

سكن صابئة ميسان بجوار نهر الطيب وفي القرن الثالث الميلادي التحق بهم فائق والدماني مؤسس النانوية بعد ان جاءه هاتف من السماء بعبادة الله والابتعاد عن الخضوع للاصنام ويقال ان النانوية اخذت تعاليمها من الصابئية.

(الصبا) تعني اصطبغ وكلمة (مندائي) تعني العارف بالدين والحق والصابئة المندائية ليست فرقاً مميزة او قومية خاصة.. انما هما تسميتان لعقيدة دينية جاءت تعاليمها باللغة الآرامية الشرقية المعروفة بالمندائية. يعتبر شيث بن آدم من وجهة نظر الصابئة شخصاً مقدساً وهم يعتقدون انه رمز للكمال البشري وان نفوس البشر تقارن بنفسه يوم الدينونة فمن شابهت نفسه نفس شيث عد من الطاهرين. تناول الكثير من المؤرخين الصابئة وتكلموا على تاريخهم ففي كتاب معجم البلدان يقول ياقوت الحموي عن حران، سميت بـ (هاران) اخي ابراهيم عليه السلام لأنه اول من بناها وعندما عربت سميت بـ (حران) وذكر انها اول مدينة بنيت بعد الطوفان وكانت اول المنازل فيها للصابئة وهم من الحورايين، وكذلك كتب عنهم الشهرستاني في كتاب (الملل والنحل) والدمشقي في كتابه (محن الدهر في عجائب البحر) واعتبروهم من الروحانيين الذي يقولون بوجود وسائط بين الله والعالم هي التي تدير الكون وتفيض عليه الوجود، وكذلك اطلق ابن النديم في كتابه الفهرست على الصابئة (الكلدانيين) وهذا يشير الى علاقة قديمة لوجودهم في وادي الرافدين.. وقال عنهم البيروني في كتابه (الآثار الباقية من القرون الخالية)، نحن لا نعرف عنهم إلا انهم اناس يوحدون الله وينزهونه.

في سوق الذهب

سألت ازهار صباح عن المكان الذي يتواجد فيه شباب الطائفة، ارشدتني الى سوق الذهب، الذي لا يبعد سوى امتار قليلة عن سوق العمارة الكبير وهناك تجولت ودخلت محل مظفر فوزي وحال ما عرفبمهمتي دعا بعض الشباب ليتبادلوا الحديث معي وفي جلسة ساخنة بدأت بالحديث عن اصول الصابئة وانتهت بالضغوطات التي تعرضوا لها فقال مظفر فوزي، لقد حاربنا النظام السابق عندما جفف الانهار واصبح الماء نذراً، فديانتنا تشترط على المتعمد ان ينزل في الماء الجاري ليتطهر قاطعه صباح ماجد متحدثاً عن عدم موافقة حكومة صدام على تقديم منحة للطائفة لترميم (مندى) العبادة، ومنعهم من الاعلان عن اعيادهم في تلفزيون العراق ورفع اجور محلاتهم بين حين وآخر بدون مبررات، شقيق صباح واسمه سلام تحدث بأنفعال عن استغلال رجال الامن لهم واخذ مصوغات ذهبية منهم من دون ان يدفعوا ثمنها واضاف، كان بإمكانهم ان يأخذوا منا ما يشاؤون ويهددونا بالسجن واذا لم يدفع احد منا يرمى لأيام في السجن وبعد ذلك يدفع (100) او (200) الف دينار. قلت في سري ان الكابوس كان يطل على الجميع وليس بإمكان احد ان لا يتخيله وقبل ان اودع الشباب في سوق الذهب سألتهم عن الطموح الذي يريدون ان يتحقق لهم الآن. فاجاب مظفر فوزي، خلال حكم صدام لم تكن أرواحنا تصل الى الحكومة والآن نطالب بأن يكون لنا ممثل في مجلس الحكم ليتابع شؤوننا ويدافع عن حقوقنا وتضامن الاخوان صباح وسلام ماجد مع مظفر في هذا المطلب الذي سيعزز على حد قولهم الديمقراطية في بلدنا.

تصوير: صلاح الازرقي